«الآداب»: منطلقاتها الثقافيّة وتحوّلات الخطاب النقدي العربي

د. صبري حافظ

تسعى هذه الدراسة/ الشهادة إلى طرح عدد من الأسئلة الأساسيّة حول الدّور الكبير والاستثنائي الذي قامت به هذه المجلّة العريقة التي نحتفل اليوم بعيدها، وإلى إثارة عدد من القضايا التي ارتبطتْ بها في مجال النّقد الأدبي وفق أفق الثّقافة العربيّة بشكل عام. ولا تزعم هذه الدراسة استنفادَ كلّ الأسئلة والقضايا المتعلّقة بدور **الآداب** الكبير في مجال الخطاب النّقدي، أو الإجابة على كلّ ما تطرحه من تساؤلات.. ولكنّها تطمح إلى إثارة الأسئلة ووضع عدد من القضايا الأساسيّة على صعيد البحث الذي يتناول مسيرة هذه المجلّة المهمّة، ومسار الثّقافة العربيّة من خلالها. لكن قبل طرح أيّ من هذه الأسئلة أو القضايا أودّ في البداية أن أشير إلى أنّ ديْني الشخصي لهذه المجلّة المهمّة هو الذي يدفعني إلى استخدام اصطلاح «الدراسة/ الشّهادة» لأنّ ارتباط الذّات الدارسة بالموضوع المدروس ينفي عنها الحياديّة الباردة والمشكوم في وجودها أصلاً في الدراسات الإنسانيّة. ومع هذا تظلّ جلّ اجتهادات هذه الدراسة في نطاق الموضوعيّة، لأنّ صدورها عن مُشارك في مسيرة المجلّة يقترب بها من تخوم الشهادة الاعترافيّة، ولكنّه يزوّدها في الوقت نفسه بخبرة ممارس يعرف موضوع دراسته حقّ المعرفة ويتوفّر له في الوقت نفسه قدر من البعد الضروري عن قضايا الإدارة اليوميّة لتلك المجلّة، أو الارتباط الماديّ بها؛ فقد كان هذا العبء الأكبر هو عبء صاحب **الآداب** وعقيلته، وهذا البُعد هو الذي يكسب هذه الدراسة دلالتها بقدر القرب من موقع الأحداث الثقافيّة فيها تماماً. ومن البداية أودّ التأكيد على أنّه برغم بُعْدِ الشهادة في هذه الدراسة، فإنَّ البُعد النّقدي والمنهجي فيها يحتّم عليها الابتعاد عن الإغراق في سرد التواريخ والوقائع التي عاشها كاتبها، والاقتراب بشكل أكبر من الدّلالات العامّة التي صاغت دور **الآداب** وبلورتْ إنجازاتها المعرفيّة في الواقع العربي على مدّ العقود الأربعة الأخيرة أو يزيد.

وإذا ما رجعنا الآن إلى الأسئلة بعد هذه المقدّمة التوضيحيّة وجدنا أنّ للأسئلة نفسها أهمّيّتها حتّى لو لم تستنفد الدراسةُ كلَّ الأجوبة المطروحة عليها. فلماذا استطاعت **الآداب** أن تكون عنصراً فاعلاً في الثقافة العربيّة من المحيط إلى الخليج؟ وما هو دورها بالنّسبة لجيلي من الكتّاب عامة، ومن النقّاد منهم على وجه الخصوص؟ وما الذي ميّزها بالنّسبة لهذا الجيل عن عدد من المجلاّت التي توفّر لها ما لم يتوفّر لـ **الآداب** من إمكانيات ماديّة أو مؤسَّسيّة... ومع ذلك لم تستطع هذه المجلاّت أن تنافس **الآداب** على مكانتها بين القرّاء والكتّاب، وظلّت أغلبها تَنْفَسُ على **الآداب** هذه الدور وتلك المكانة؟ وكيف استطاعت **الآداب** أن تكون في ازدهارها وفي تعثّرها معاً شهادةً حيّةً على مسيرة الثّقافة العربيّة، «وترمومتراً» يسجّل ما انتابَها من تحوّلات؟ وأهمّ من هذا كلّه ما هي مجموعة القيم الثّقافية

والأدبيّة التي ارتبطت بها هذه المجلّة في الواقع العربي، ودافعتْ عنها طوال مسيرتها الطويلة؟ وكيف كان هذا الارتباط القوي الأصيل بها هو الذي استأدى المجلّةَ الثمنَ الفادح الذي دفعته بنبلٍ وكرامة في زمن الانحسار العربي الرّديء؟ ولماذا لم تتمكّن كلُّ المجلات التي حاولت أن تحلّ محلّها من الاضطلاع بشيء من الدّور الذي قامت به **الآداب** على مرّ العقود... وخاصّة تلك التي صدرت في النّصف الثاني من السبعينات وطوال عقد الثمانينات، وهو زمن الحرب الأهليّة اللّبنانيّة التي كانت جزءاً من سياق أوسع يستهدف ضرب المراكز العربيّة القديمة في القاهرة وبيروت لحساب الهوامش النفطيّة، وضرب حركة الاستقلال والتحرّر العربيّة لحساب التبعيّة ومخطّطات أعداء الأمّة العربيّة، وضرب المشروع العربي لحساب المشروع الصهيوني/الأمريكي في المنطقة؟

وليس غريباً أن تتأثّر **الآداب** بهذا كلّه، فقد جاء ميلادها نفسه

لماذا لم تتمكّن كُلُّ المجلاّت الّتي حاولتْ أن تحتلّ محلّ «الآداب» - وخاصّةً تلك الّتي صدرت في زمن الحرب الأهليّة اللّبنانيّة - من الاضطلاع بشيءٍ من الدور الّذي قامتْ به الآداب على مرّ العقود؟

في موعد مع التحوّلات العربيّة الكبرى. كان الواقع الذي ولدت فيه **الآداب** هو واقع سنوات ما بعد النكبة الكبرى التي أصابت العرب في فلسطين، بعد أن رزأوا بحكّام مهّدوا للنكبة وشاركوا في حدوثها. وكانت السيطرة الاستعماريّة على المنطقة من أهمّ أسباب عجز العرب عن التصدّي للمخطّط الصهيوني الاستعماري الذي يستهدف الإطاحة بمستقبلهم. وبلغ التردّي مع مطلع الخمسينات ذروته بصورة أصبح يرهص فيها بالتحوّلات القادمة، لأنَّ استمرار واقع التردّي على ما هو عليه أمر مستحيل. وأصبح الشباب، بخاصّة، على يقين بأن لا مناص من التغيير. وهذا الواقع العربي المرّ هو ما عبّر عنه منير البعلبكي، أحد أصحاب امتياز **الآداب**، في عددها الثالث، بأنّه:

واقع بشع قاتم لا يطالعك بغير الكلوح والشّؤم كيفما واجهتَه، ومن أيما زاوية نظرتَ إليه. فهو في حياتهم الأخلاقيّة والمسلكيّة واقعُ الإثرة والأنانيّة، والتحاسد والتباغض، والمكيدة والزلفى، والنفعية والوصوليّة، والتحرّر والاستهتار. وهو في حياتهم الاجتماعيّة والعقليّة واقعُ البؤس والمرض، والخرافة والتقليد، والطبقيّة والببغائيّة، والوثنيّة والتعصّب، والأمّيّة المتعالمة، والعلم الذي هو أقرب شيء إلى الجهل. وهو في حياتهم الاقتصاديّة والسّياسيّة واقعُ الإقطاع والرجعيّة، والفساد والفوضى، والارتجال والتخبّط، والفاقة تغرق في ديجورها الكثرةُ الكثيرة من أبناء الأمّة، والنعمة تنغمس في مترافها القلّةُ القليلةُ ممّن يدعونهم أهل الامتياز. إنّه واقع القبليّة والعائليّة والانقياد والإمّعيّة. واقع الاستعمار السّافر حيناً المقنع حيناً آخر. واقع «إسرائيل» التي أناخت بكلكلها على قلب العالم العربي فشطرته شطرين، وأزعجت مليوناً من عرب فلسطين عن ديار الآباء والأجداد ومدارج الصِّبا وملاعب الشباب، والتي تتهدّد العرب كلّما ارتفع ضحى أو هبط ليل بخزي جديد يمدّ في رقعتها ويبسط من سلطانها، وقد يجعل في يدها الغادرة مفاتيحَ هذا الجزء من العالم في وقت قريب أو بعيد[1].

هذا الواقع الذي صدرت **الآداب** عنه وطمحتْ إلى تغييره يوشك أن يكون بعد أكثر من أربعين عاماً على صدورها وكأنّه ثابت بيننا لا يريم. انقشعت غمّتُهُ لسنوات قليلة ثمّ عادت لتخيّم علينا من جديدٍ أشدَّ حلكةً وأكثرَ تردّياً. رحل الاستعمارُ القديمُ في الخمسينات والستّينات، ولكن سرعان ما عاد الاستعمارُ الجديدُ مراوغاً ومتخفّياً في السبعينات والثمانينات، ثمّ سافراً ومتغطرساً في التسعينات، ليسيطر على المنطقة ويعربد فيها. وقد استبدل باحتلال الأرض: احتلالَ العقول، والسيطرةَ على مؤسّسات الحكم والقرار، وبثَّ سمومِه عبر أجهزة الإعلام التابعة والعميلة، وتهميشَ الأصوات الرّافضة أو حصارها. واستبدل بجيوش الاحتلال فيالقَ «الخبراء» و«المستشارين»، وبأدوات القمع العسكري أشكالَ القمع المالي والتشويه الإعلامي، وبصندوق الدَّين القديم صندوقَ النّقد والبنك الدّولي، وبالإقطاع والقبليّة القديمة أموالَ النّفط والتخلّفَ والقبليّةَ الجديدة. وأحال الإخوة إلى أعداء، والأعداءَ إلى حلفاء، وأقام سدوداً من العداوات والدّماء وإجراءات تكريس القطيعة، وبثّ الكراهية بين أبناء الوطن العربي، بل وبين أبناء القطر العربي الواحد، حتّى يظلّ التفريق معراج سيادة الآخر المستمرّة علينا. وقد ترك كلٌّ من التحوّل والانتكاس أثره على **الآداب** وتفاعلت بدورها معه. ويصوغ هذا التفاعل سؤالاً مهمّاً

---

(١) منير البعلبكي: «الأدب الّذي نريد»، الآداب، العدد الثالث، مارس ١٩٥٣، ص ١.

من أسئلة هذه الدراسة حول أسباب الدوران في فلك هذه الحلقة الجهنّميّة المغلقة، وكيف تتعلّق الإجابة على هذا السّؤال بـ**الآداب** بنفس درجة تعلّقها بالواقع العربي نفسه. ذلك أنّ **الآداب** بدأت مسيرتها المشرقة مع بداية إرهاصات التغيير والتحرّر من الاستعمار القديم.. إذ ولدت في مطلع عام ١٩٥٣، بعد شهور قلائل من ثورة يوليو (تمّوز) عام ١٩٥٢، وبعد توقّف المجلّتين الأدبيّتين **الرّسالة** و**الثّقافة** اللّتين عبّرتا عن أفضل ما في المرحلة السابقة من إنجاز ثقافي وفكري؛ فكأنّما جاءت **الآداب** لتكون أداة التعبير عن التغيير الفكري والثّقافي بقدر ما كانت ثورة جمال عبد النّاصر أوّل أشكال التعبير السّياسي عن التغيير الذي تاق شباب العرب إلى تحقيقه في كفاحهم الطويل من أجل الاستقلال والتخلّص من الاستعمار والفساد والتبعيّة. وسجّلت افتتاحيّةُ العدد الأوّل منها هذا الوعي الثقافي والمعرفي الذي يريد أن يرود التغيير ويمهّد له:

في هذا المنعطف الخطير من منعطفات التّاريخ العربي الحديث، ينمو شعور أوساط الشباب العربي المثقّف بالحاجة إلى مجلّة أدبيّة تحمل رسالة واعية حقّاً. وصدور «الآداب» منبثق عن وعي هذه الحاجة الحيويّة. أمّا تلك الرّسالة التي تحملها، فتقوم على الأسس الكبرى التالية: تؤمن المجلّة بأنّ الأدب نشاط فكري يستهدف غاية عظيمة، هي غاية الأدب الفعّال الذي يتصادى ويتعاطى مع المجتمع، إذ يؤثّر فيه بقدر ما يتأثّر به. والوضع الحالي للبلاد العربيّة يفرض على كلّ وطني أن يجنّد جهودَه للعمل، في ميدانه الخاص، من أجل تحرير البلاد ورفع مستواها السّياسي والاجتماعي والفكري. ولكي يكون الأدب صادقاً، فينبغي له ألّا يكون بمعزل عن المجتمع الذي يعيش فيه. وهدف المجلّة الرئيسي أن تكون ميداناً لفئة أهل القلم الواعين الذين يعيشون تجربة عَصرهم، ويُعَدُّون شاهداً على هذا العصر. ففيما هم يعكسون حاجات المجتمع العربي، ويعبّرون عن شواغله، يشقّون الطريق أمام المصلحين لمعالجة الأوضاع بجميع الوسائل المجدية. وعلى هذا، فإنّ الأدب الذي تدعو إليه المجلّة وتشجّعه هو أدب «الالتزام» الذي ينبع من المجتمع العربي ويصبّ فيه(٢).

تكشف هذه الجمل الافتتاحيّة عن عدّة أمور مهمّة: أوّلها أنّ المجلّة تعبر عن حاجات فئة معيّنة في المجتمع، وهي فئة الشباب العربي المثقّف الذي يحمل رسالة واعية بكلّ ما ينطوي عليه هذا الوعي من دلالات. وثانيها وعي المجلّة بالسّياق

«الالتزام» في «الآداب» أساسُهُ: حريّةُ الفرد في التّفكير والتّعبير.

التّاريخي والسّياسي والفكري الذي تصدر فيه، وبالمنعطف التّاريخي الذي تريد أن تؤدّي دورها به. وثالثها إدراكها للجدل بين كلّ مكونات الواقع الحضاري الذي تصدر عنه وبين المجلّة التي تطمح للتعبير عنه والتأثير فيه وريادة مسيرته نحو الأفضل؛ وهو جدل ينهض على «التصادي والتعاطي» لا على مجرّد الانعكاس الآلي أو التبعيّة لأولي الأمر، لأنّه يطمح إلى التأثير بقدر ما يعي ضرورةَ أن يتأثّر أو يستوعب. ورابعها مبادرة المجلّة لأخذ زمام المبادأة في معركة أرهصت بها وأدركت أنّها تشهد بداياتها التي ستبلغ ذراها في السنوات التي شهده مجد **الآداب** وصنعته، وهي معركة «تحرير البلاد ورفع مستواها السّياسي والاجتماعي والفكري»؛ ومن هنا كانت مناداتُها بضرورة ألّا يكون الأدب في معزل عن المجتمع وهي التي صدرت على أنقاض المرحلة التي شهدت جدلاً طويلاً حول الفن للفن. وخامسها أنّ **الآداب** انحازتْ منذ بداياتها الأولى ـ وبسبب صدورها عن صبوات الشباب ومطامحهم ـ لرؤى التجديد ولفئة أهل القلم الواعين الذين يعيشون تجربة عصرهم، ويعدّون بحقّ شاهداً على هذا العصر بكلّ ما يعد به من تحوّلات. وسادسها وعيُها بريادة الأدب لحركة الإصلاح الحضاري في كلّ مناحي الحياة.. لهذا كلّه دعت **الآداب** منذ

(٢) سهيل إدريس: «رسالة الآداب»، الآداب، العدد الأوّل، يناير (كانون الثاني) ١٩٥٣، ص ١.

البداية إلى أدب «الالتزام» الذي ينبع من المجتمع العربي ويصبّ فيه:

والمجلّة إذ تدعو لهذا الأدب الفعّال تحمل رسالة قوميّة مثلى. فتلك الفئة الواعية من الأدباء الذين يستوحون أدبَهم من مجتمعهم يستطيعون على الأيّام أن يخلقوا جيلاً واعياً من القرّاء يتحسّسون بدورهم واقع مجتمعهم، ويكونون نواةَ الوطنيين الصالحين. وهكذا تشارك المجلّة، بواسطة كتّابها وقرّائها، في العمل القومي العظيم، الذي هو الواجب الأكبر على كلّ وطنيّ(٣).

وتربط الافتتاحيّة هنا هذا «الالتزام» الأدبي الذي دعت إليه، بالبعد القومي وبالدور الفكري للمجلّة، بشقّيها الفاعلين: الكتّاب والقرّاء، في بلورة هموم الواقع والتعبير عن آماله ورؤاه، وفي صياغة أشكال العمل القومي الأكبر الذي تعدّه الواجبَ الأوّل على كلّ وطني. وهذا الرّبط الواضح بين البعدين الوطني والقومي، وكأنّهما وجها عملة واحدة في مصطلح المجلّة الفكري، هو الذي أكسب دعوة **الآداب**، على مرّ سنوات عمرها، تلك الأهمّيّة التي أثارت الجدل بين الكتّاب، وربطت الأدبَ بالتحوّلات الفكريّة والسياسيّة التي شهدتها السّاحةُ العربيّةُ منذ البداية. وهو الذي جعلها أداة فعّالةً في صراع الواقع العربي من أجل بلورة مشروعه ومن أجل الدّفاع عن رؤاه الوطنيّة والقوميّة. وقد كانت المجلّة واعية من البداية بضرورة أن يكون لهذا العمل القومي العربي بعده الإنساني. ومن هنا أكّدت في افتتاحيّتها تلك:

على أنّ مفهوم هذا الأدب القومي سيكون من السّعة والشّمول حتّى ليتّصل اتّصالاً مباشراً بالأدب الإنساني العام، مادام يعمل على ردّ الاعتبار الإنساني لكلّ وطني، وعلى الدعوة إلى توفير العدالة الاجتماعيّة له، وتحريره من العبوديّة الماديّة والفكريّة، وهذه غاية الإنسانيّة البعيدة. وهكذا تسهم المجلّة في خلق الأدب الإنساني الذي يتّسع ويتناول القضيّة الحضاريّة كاملة. وهذا الأدب الإنساني هو المرحلة الأخيرة التي تنشدها الآداب العالميّة في تطوّرها(٤).

فالبعدان الوطني والقومي في رسالة **الآداب** هما التعبير

(٣) المرجع السابق، نفس الصفحة.

(٤) المرجع السّابق، ص ١ و ٢.

شهادة مستعربة

مونيكا روكو

اسمحوا لي أيّها السادة ـ أنتم أهل الضّاد ـ أن أعتذر عن لفظي الركيك، لكنّي سأحاول أنْ أوصل لكم ما أُريد قوله من غير لعثمة وتشويش.

اقترَحَني الدكتور سهيل ادريس لأُلقي كلمةً أُعبِّر فيها عن رأيي كمستشرقة حول مجلّة **الآداب**. ولقد شرّفني هذا الاقتراح، غير أنّي أودُّ إجراء تعديل طفيف لكنّه هامٌّ جدّاً بالنسبة لي... وذلك بخصوص مضمون الدعوة، فأقول رأيي كمستعربة لا كمستشرقة!

لقد أعددتُ في جامعة نابولي للّغات الشرقيّة (I.V.O.) وبإشراف الأستاذة Isabella Camera رسالة دكتوراه عن «دور المثقّف العربيّ المعاصر من خلال مجلّة **الآداب** من الخمسينات حتّى الثمانينات». فما الّذي دفعني لاختيار مجلّة **الآداب** موضوعاً لدراستي؟

قبلَ كلِّ شيء كانت تهمّني قضيّة تأسيس وتطوّر الأدب والفكر العربي الحديث بدءاً من مرحلة ما بعد الاستقلال. في هذه الفترة ـ أعني في الخمسينات ـ جرى نقاش بين المثقّفين العرب حول نشأة ثقافةٍ عربيّةٍ حديثة وحول أدبٍ مُحْدَث جديدٍ في الشّكل والمضمون.

واختار المثقّف الحديث المقالة الصحفيّة وسيلة للتّعبير. وهكذا أصبحت المجلّات الأدبية والثقافية مجالَ تقاطع تيّارات فكريّة وأدبيّة مختلفة. ولعبت مجلّة **الآداب** ـ ولاتزال ـ دوراً هامّاً جدّاً في التوعية اللازمة وفي خلق أسلوب جديد في الصحافة الأدبيّة وفي إظهار الدور الاجتماعي الذي يمكن أن يلعبه الأدب.

لهذه الأسباب اخترتُ مجلّةَ **الآداب**... إضافة لسببٍ هامٍّ جدّاً من الناحية المنهجيّة، وهو أنَّ إصدارات هذه المجلّة تواصلت وبدون توقُّفٍ منذ عام ١٩٥٣... وهو ما يجعل منها موسوعةً للأدب والثقافة العربيّة المُعاصِرَيْن.

لقد درستُ إنتاجَ **الآداب** من ١٩٥٣ إلى ١٩٨٦ واستعملتُ منهج البحث التالي:

١ ـ قمتُ بتحليلٍ كمّي عبر فهرسة كلِّ المقالات بالحاسوب مع عناوينها وترجمتها الإيطاليّة، ثمّ وضعتُ دليلاً للمؤلّفين وآخر للموضوعات. وهذه الأدلّة ستكون مفيدة لكلِّ من يريد أن يرجع إلى موضوعٍ معيَّن أو لكتاباتٍ معيَّنة ظهرتْ في المجلّة خلال تاريخها الطويل.

المحلّي لديها عن رسالة الأدب الإنسانيّة الأوسع. وهما وثيقا الصّلة في هذا المجال بقضيّة العدالة الاجتماعيّة، وردّ الاعتبار الإنساني لكلّ مواطن في عالم كان العربي فيه يشعر بالمهانة في وطنه الذي كانت السيادةُ فيه وقتَها للأجنبي المحتلّ. وكان همّ **الآداب** من البداية أن تساهم في خلق الأدب الذي يكرّس هذه القيم الإنسانيّة ويردّ الاعتبار للمواطن ويشعره بالكرامة في وطنه، وبالاعتزاز به والسيادة به وفيه. فأين نحن الآن من هذه القيم التي استهدفت **الآدابُ** تكريسَها في الواقع العربي؟ لقد تحقّقت هذه القيم في بعض اللّحظات وفي بعض الأقطار، وتحقّقت معها **الآداب** وازدهرت؛ ثمّ أُطيح بها، وعانت **الآداب** من آثار هذه الإطاحة وترنّحت معها. فقد كانت **الآداب** جزءاً من مرحلة ومن مشروع ومن حلم عربي عزيز، لايزال بعد أربعين عاماً في منطقة الأحلام العصيّة بعد أن شارف على التحقّق في لحظات قليلة من تاريخنا العربي القريب. وقد كان دور الأدب في هذا الحلم العربي القومي المشروع هو أكثر القضايا التي استأثرتْ بالجدل والنقاش في العام الأوّل من عمر **الآداب**. فقد كتب النّاقد الرّاحل أنور المعداوي، وهو الذي كان ألمع نقّاد المرحلة السّابقة على صدور **الآداب** وأحد نجوم مجلّة **الرّسالة** السّابقة عليها، في العدد الثاني من **الآداب** مقالاً ضافياً بعنوان «الأدب الملتزم» يناقش فيه هذه القضيّة. ويركّز على نقاط الاختلاف بين أدب «الالتزام» الحرّ الذي تدعو له **الآداب**، والأدب الاشتراكي الذي يدعو إليه الشيوعيّون:

الأدب لكي يكون ملتزماً في رأي سارتر لابدّ له أن يتنفّس هواء الحرِّيّة بملء رئتيه. لابدّ من حرِّيّة الكاتب فيما يكتب، ولابدّ من حرِّيّة القارئ فيما يقرأ ليتحقّق ذلك الهدف المثالي لمبدأ الالتزام. أمّا حرِّيّة الكاتب فلن تتوفّر له إلاّ إذا تخلّص من الخضوع لتيّارات حزبيّة معيّنة تملي عليه ما يتّفق ووجهة نظرها من آراء وأفكار. وأمّا حرِّيّة القارئ فتتمثّل في عدم إرغامه على قبول لون بعينه من الإنتاج الأدبي الذي يتّجه إلى غاية محدودة وهدف مرسوم(٥).

هذا الإلحاح على مبدأ الحرِّيّة: حرِّيّة الكاتب وحرِّيّة القارئ كان واحداً من المبادئ المهمّة التي أرستها **الآداب** من خلال

(٥) أنور المعدّاوي: «الأدب الملتزم»، **الآداب**، العدد الثاني، فبراير (شباط) ١٩٥٣، ص ١٢.

---

٢ ـ قمتُ بتحليلٍ نوعيٍّ للمقالات الأدبيّة والثقافيّة والسياسيّة واللّغويّة والفنيّة والسوسيولوجيّة المنشورة في المجلّة، وحاولتُ أن أضع المُقاربات المختلفة (الأدبيّة، السياسيّة، إلخ. . .) في إطار تاريخي. هذه الطريقة سمحتْ لي أنْ أُصنّف نتاج **الآداب** في ثلاث مراحل:

الأولى من ١٩٥٣ إلى ١٩٦٢

الثانية من ١٩٦٣ إلى ١٩٧٤

الثالثة من ١٩٧٥ إلى ١٩٨٦.

لم أُردْ أن أسجنَ التيّارات الأدبيّة والفكريّة في حدودٍ ثابتة؛ لكنّي آمنتُ أنّ من المفيد أن أسوقَ بعضَ المعالم التاريخيّة. وتبيّن لي عبر دراسة **الآداب** أنّه ليس من المبالغة في شيء القول إنّ قصّة هذه المجلّة اللبنانيّة هي قصّة الثقافة العربيّة المعاصرة.

وبفضل مبادرة مديرها الدكتور سهيل ادريس أصبحت المجلّة منبراً لمناقشات عديدة ومهمّة اشترك فيها أيضاً بعض الباحثين الإيطاليّين مثل Alessandro Bausani و Umberto Rizzitano.

لقد حقّقتْ مجلّة **الآداب** في نصف القرن المنصرم أهدافاً عديدة أهمّها:

* الحفاظ على التراث الفكري العربي الذي كان يُهدِّده غيابُ ثقة بعض الكتّاب فيه.

* رعايةُ حداثةٍ أدبيّةٍ استطاعتْ مع السنين إيجاد وسائل المعادلة المناسبة لبقائها.

* تحويل الأدب إلى سلاح فعّال في الصراع من أجل التقدّم والتنمية.

* العمل لإعطاء المشهد الثقافي العربي طابعاً مختلفاً عن الطابع التقليديّ الذي كان يعيش في أَسْرِه.

لقد ناضلت المجلّة ضدَّ التخاذل الثقافي، دافعةً الأدباء لمقاومة الظروف الصعبة التي يعيشون فيها في بلادهم وفي زمانهم، ومُشجِّعةً إيّاهم على الصُّمود في وطنهم وعلى مقاومة إغراءات التغرُّب الذي لا يكون فقط بهجرة الأدمغة وإنّما أيضاً بهجرة النُّفوس.

ولئنْ شكّلت الكتب المنشورة في دار الآداب الوسيلة الأمثل لوقف هذه الهجرة، فإنّ هذه المجلّة اللبنانيّة تبقى الوسيلة الأكثر تأقلُماً لذلك في الظّروف الرّاهنة. لقد مثّلت مجلّة **الآداب** وبحقّ، منبراً متميّزاً للديمقراطيّة وحريّة الرأي والفكر في العالم العربي. ونتمنّى أن تستمرّ وتعيش لوقتٍ طويل أيضاً مُدافعةً عن هذه الأهداف السامية التي لا يمكن لفكرٍ أن يُضيء ولا لأدبٍ أن يعيش إلاّ في ظلِّها.

مرّة ثانية أشكركم لتحمُّلكم لهذه الخطبة المقتضَبة وأتمنّى لمجلّة **الآداب** عمراً مديداً وحياة غنيّة بكلّ ما يعود بالخير على الثقافة العربيّة.

روما

كتّابها. وقد أراد أنور المعداوي أن يضع هذا الهدف ضمن أهداف المجلّة منذ ميلادها، وتقبّلت **الآداب** منه هذا البعدَ بصدر رحب، بل ورحّبَتْ به، لأنّه كان يتّفق مع سياستها المضمرة. ولو أعلن الكتّاب ما تضمره المجلّة فلاضير في هذا؛ ذلك أنّ حرّيّة الفرد في التفكير والتعبير لديها هي أساس «الالتزام» الذي يتيح الاختيار ويترك بابه مفتوحاً على مصراعيه، ويرفض الإملاء والإذعان وكلّ ما يرتبط بأخلاق العبيد، كما يرفض أيّ شكل من أشكال التسلّط التي تتمّ فيها سيطرةُ النظم السياسيّة على الأدب وعلى مختلف السياسات الثّقافيّة. فقد كانت **الآداب** وكتّابها الأوائل على وعي بأنّ الحرّيّة مبدأ أساسي من مبادئ الالتزام الذي تدعو إليه، وعلى أنّ السّياق التّاريخي الذي ظهرت فيه ـ عقب الانقلاب العسكري في مصر، الذي سبقه انقلاب عسكري آخر في سوريا ـ يستوجب عليها الحذر وتنبيه القارئ والمؤسّسة على السّواء إلى أهمّيّة هذه الحرّيّة وإلى ضرورة الذود عنها. وكان من الطّبيعي أن تفسح **الآداب**، وهي لم تزل بعد في لفائف الميلاد، لهذا البعد أن يتبلور، وأن تتيح لأنور المعداوي أن يضع النقط على الحروف وهو يقول:

والمجلّة إذ تدعو إلى هذا الأدب الفعّال، تحمل رسالة قوميّة مثلى. فتلك الفئة الواعية من الأدباء الذين يستوحون أدبهم من مجتمعهم يستطيعون على الأيّام أن يخلقوا جيلاً واعياً من القرّاء يتحسّسون بدورهم واقع مجتمعهم، ويكونون نواة للمواطنين الصّالحين[٦].

ثمّ يؤكّد سهيل إدريس نفسه هذا الأمر في العدد الخامس من **الآداب** وهو يتعرّض للأدواء التي يعاني منها الأدب العربي حين قال إنّ:

أخطر الشكاوي التي يتبرّم منها الأدبُ العربي الحديث موقفُ بعض الحكومات العربيّة من حرّيّة الأديب في التعبير. فعلى الرّغم من أنّ هذه الحكومات تدّعي الحكم الديموقراطي، فهي تحرم الأديب في كثير من الأحيان من أن ينعم بحرّيّته، فتخضعه للضغط والعسف والملاحقة والاضطهاد... إنّ قضيّة حرّيّة الأديب قضيّة جذريّة في حياته، ولاسيما في هذه الفترة من تاريخ البلاد العربيّة التي نجد الأديب فيها نفسه مدعوّاً إلى خدمة قومه وأمّته، بكلّ حظوظ القوّة الفكريّة التي يملكها. فمادامت الرّقابة الفعليّة قائمة في ظلّ نظام جائر أو نفوذ إقطاعي، فإنّ رسالة الأدب معطّلة، وبالتالي رسالة قسم هامّ من حياة الأمّة[٧].

وما إن يفرغ أنور المعداوي من قضيّة الحرّيّة حتّى يعود إلى التأكيد على جزء هامّ ودال ورد في افتتاحيّة **الآداب** في عددها الأوّل، واستوجب منه تكرارَه في مقاله.. وهو تكرار له دلالاته التي تركّز على أبعاد العدالة الاجتماعيّة، وردّ الاعتبار للمواطن وللإنسان، وتحريره من شتّى ألوان العبوديّة الفكريّة والسّياسيّة ـ وهو الجزء الذي تلحّ فيه الافتتاحيّة: «على أن مفهوم هذا الأدب سيكون من السعة والشمول حتّى ليتّصل اتّصالاً مباشراً بالأدب الإنساني العام (إلخ...)»[٨].

وينطلق بعد هذا ليؤكّد أنّ:

هذه الدّعوة الصّادقة، مصبوبةً في هذه الكلمات الواعية، متّجهةً إلى هذه الأهداف المثاليّة، جديرة بأن يتقبّلها الأدباء تقبُّلَ الإيمان الذي لا يشوبه الشكُّ بأنّ الأدب تبعة ومسؤوليّة: تبعة، حين نفهم أنّه رسالة توجيه، ومشعل إصلاح، وقيادة رأي، ودعوة حرّيّة وكرامة وعدالة.. ومسؤوليّة، حين ندرك أنّ من واجب الموجّه والقائد والمصلح أن يكون أميناً في نقل آرائه، حرّاً في تكوين أفكاره، لأنّ المطلوب من الأدب كما يقول سارتر أن يخاطب الأحرار، وألّا يتّجه إلى العبيد[٩].

ثمّ يضيف أنور المعدّاوي إلى هذا كلّه بعداً مهمّاً ينطوي عليه عنوان المجلّة ذاته، وهو أنّ **الآداب** هي مناط أدب «الالتزام» ومجاله الأساسي. ذلك أنّ «الآداب» تستخدم الألفاظ بطريقة مغايرة لاستخدام الفنون الأخرى من تصوير وموسيقى لأدواتها التعبيريّة. ويؤكّد في هذا المجال، ولو بطريقة غير مباشرة، أهمّيّة الآداب التي اتّخذتها المجلّة عنواناً لها بين غيرها من أشكال التعبير الإبداعي المختلفة في عمليّة التغيير التي يتواخاها الأدبُ الملتزم ويطمح إلى القيام بها في الواقع الحضاري الذي يصدر عنه. لذلك يؤكّد المعدّاوي، آخذاً بعين الاعتبار إخراج سارتر للشّعر من دائرة الالتزام لسعيه لتقديم الجمالي على الدلالي:

أنّنا نوافق الكاتبَ الوجوديَّ على أنّ الفنون الأخرى أقلُّ من الأدب قوّة في الإفصاح وقدرة على التعبير حين يطلب في الفنّ أقصى المدى من الإيحاء والتأثير. نوافقه لأنّنا نؤمن مثلاً بأنّ قصيدة من الشّعر مهما حملتْ من خلجات النّفس، ومهما نقلتْ من سبحات الفكر، ومهما عكستْ من صور الحياة، لا يمكن أن تبلغ من الإحاطة بهذا كلّه، ومن التغلغل في أعماقه والنفاذ إلى أغواره ما تبلغه قصّةٌ من القصص

(٦) المرجع السابق، ص ١٣.

(٧) سهيل إدريس: «شكاوى الأدب العربي الحديث»، **الآداب**، العدد الخامس، مايو (أيّار) ١٩٥٣، ص ٤.

(٨) سهيل إدريس: «رسالة الآداب»، مرجع مذكور؛ وقد اقتطفه أنور المعدّاوي في مقالته المذكورة أعلاه، ص ١٣.

(٩) أنور المعدّاوي، المرجع السّابق، ص ١٣.

أو مسرحيّة من المسرحيّات[١٠].

صحيح أنّ تفضيل المعدّاوي لفنون التعبير النثري على الشّعر وفق أساس دلالي أمرٌ مشكوك فيه، ولكنّه يقبل الجدل والنّقاش. لكنّ المهم أنّه يدعو في الوقت نفسه إلى توسيع أفق الاهتمام بالآداب من خلال استخدام شتّى أدوات الاتّصال التي ترهف قدرة الكاتب على الفعاليّة والتّأثير، وتوسّع من قاعدة جمهوره:

فعلى الأديب الملتزم أن يستغلّ كلّ وسيلة من هذه الوسائل لتتمّ الصّلة بينه وبين الرأي العام على أوسع نطاق. عليه أن يؤدّي رسالته على الورق، وفوق خشبة المسرح، وعلى شاشة السينما، وعلى موجات الأثير، وبخاصّة إذا ما كان قصّاصاً أو كاتباً مسرحيّاً أو ما شئت من تنوّع المواهب عند الأدباء وتعدّد الملكات[١١].

كان صدور «الآداب» بمبادرة فرديّة تعبيراً عن وعي ثقافي جديد يرى أنّ من عناصر التّغيير المنشود: استقلاليّة الثقافة والمثقّف عن المؤسّسة، وانبثاق عهد جديد على القارئ أن يموّل فيه منابره الثقافيّة بنفسه!

وهذا الحرص على استخدام كلّ أدوات الاتّصال وتبليغ الرّسالة الجديدة إلى أوسع قاعدة من الجمهور له أهمّيّة كبيرة لأنّه ينطوي لا على رغبة الأديب في الانتشار والتّأثير فحسب، وإنّما على أن يكون له كذلك قاعدةٌ واسعة من المواطنين الذين يتبنّون رؤاه، ويحمون اجتهاداته، ويكرّسون استقلاله الفكري. فقد كان صدور **الآداب** نفسها عن مبادرة فرديّة لعدد من الشّباب، ودعوتها لشباب القرّاء للالتفاف حولها، تعبيراً عن وعي ثقافي جديد يرى أنّ من عناصر التغيير المنشود الأساسيّة استقلاليّةَ الثقافة والمثقّف عن المؤسّسة، وانصرامَ عهد رعاة الفنون والآداب ـ سواء أكان هؤلاء الرّعاة من الأثرياء أو السّلاطين أو حتّى مؤسّسات الحكم ـ وانبثاقَ عهد جديد على القارئ أن يموّل فيه منابره الثّقافيّة وأن يحميها. وبدون التفاف جمهور القرّاء حول المنبر الثّقافي، تتعرّض استقلاليّته نفسها لشتّى الأخطار، ويسهل احتواؤه والالتفاف عليه. ومن هنا كان حرص **الآداب** على تعميق الجدل الخصيب بين الأدب والقارئ وبينهما معاً والواقع الحضاري. ذلك أنّ المنبرَ المستقلّ الفاعل هو الذي يتحقّق به الدور المنشود للأدب الفعّال الذي دعت إليه **الآداب** منذ أعدادها الأولى:

والأدب في رأس القوى التي ينبغي أن تُجَنَّد في سبيل دفع دولاب النهضة واستعجال البعث. فليس كالأدب حين يستقيم على الطّريقة حافزاً إلى اليقظة والنهوض. وليس كالأدب حين يتردّى في مهاوي التبذّل داعية إلى التبلّد والخمول؛ فهو كالأفيون أو أشدّ منه فتكاً. من أجل ذلك قلنا في هذه المجلّة بمبدأ الأدب الملتزم. ومن أجل ذلك دعونا أدباءنا إلى النزولِ من أبراجهم العاجيّة إلى أرض النّاس والخوض في دنياهم الضّاجّة بالمشكلات، ليبدعوا لنا أدباً مسؤولاً «ينبع من المجتمع العربي ويصبّ فيه» كما قال الدكتور سهيل إدريس في «رسالة الآداب» وهو يقدّم المجلّة إلى القرّاء. فنحن لا نريد بعد اليوم أدباً رخواً يتغنّى بالليّالي الخرّد الغيد، أو يدغدغ غَرائزنا الدّنيا فيمسخ الحياة في أعيننا إلى غلالة وساق، ويحيلها إلى صراع من أجل امرأة. إنّما نريد أدباً يعالج مشكلاتنا الأساسيّة الملحّة، ويصوّر واقعنا المعتم تصويراً يكشف لنا عن مواطن الخلل فيه، ويهيب بنا إلى إصلاحه وتحسينه. نريد أدباً يحرّرنا من شتّى عبوديّاتنا العقليّة والنفسيّة والاجتماعيّة. نريد أدباً يخلق من أبنائنا مواطنين يؤمنون بأنّ الأمّة فوق الطائفة، والوطن قبل الأسرة، وينفخ فيهم روح القوّة والفتوّة والثأر. وعندئذ يكون من حقّنا أن نطمئن إلى أنّ العرب قد اجتازوا امتحان الحياة أو الموت الذي فرضته عليهم أحداثُ السنوات الأخيرة من العقد الخامس من القرن العشرين[١٢].

مرّة أخرى ألا تزال هذه الكلمات التي عبّرت عن رسالة **الآداب**، وعن نوعيّة الأدب الذي تدعو إليه قبل أكثر من أربعين عاماً، وكأنّها صرخة كاتب عربي يعيش معنا اليوم في منتصف العقد الأخير من القرن العشرين؟ فما أشبه اللّيلة بالبارحة، وأحداث العقد الخامس من هذا القرن في عالمنا العربي بويلات عقده الأخير فيه، حيث استحالت النكبةُ الأولى إلى نكبات تتوالد إحداها من رحم الأخرى، واستحالت جلُّ الأنظمة العربيّة إلى عرّابين لتلك النكبات، ووكلاء معتمدين لدى النظام الاستعماري الجديد، ينكّلون بقيم الثقافة العربيّة الأصيلة، ويشوّهون العقلَ العربي، ويزيّفون الواقع والتّاريخ. لكن دورة الواقع وعودة الاستعمار معها تجعلان الرجوع إلى درس **الآداب** ودروس التّاريخ العربي القريب معها ضروريّة، حتّى نعرف أسباب هذه الدورة من ناحية، وحتّى نتلمّس بصيصَ أملٍ في

(١٠) المرجع السّابق، ص ١٤.

(١١) المرجع السّابق، نفس الصّفحة.

(١٢) منير البعلبكي، مصدر مذكور سابقاً، ص ٢.

حلكة هذا الواقع المتردّي الرديء.

* * *

والواقع أنَّ هذه الوقفة التي طالت قليلاً مع بدايات **الآداب** وسياقات مشروعها الثّقافي ونوعيّة القيم التي حرصت على إرسائها منذ البداية، هي المدخل الطّبيعي لدراسة أي جزئيّة من جزئيّات مشروعها الثّقافي وإنجازها وتواريخ تفاعلها مع الواقع على مدّ رحلتها الطويلة. فبدون التعرّف على طبيعة المنطلقات ونوعيّة القيم والرّؤى المضمرة فيها، يظلّ الحديث عن دور **الآداب** في أيّ مجال من المجالات ناقصاً. وإذا كان مجال اهتمام هذه الدراسة ينصبّ بالدرجة الأولى على دور هذه المجلّة الكبيرة في ساحة الخطاب النقدي، فإنَّ التعرّف على منطلقات المجلّة الثقافيّة يصبح أمراً لا مناص منه. ذلك أنَّ إنجاز المجلّة في المجال النقدي يرتبط ارتباطاً وثيقاً بتصوّراتها وافتراضاتها ومنطلقاتها الثقافيّة والفكريّة تلك. ومن البداية نلاحظ أنَّ المجلّة سعت ما وسعها الجهد إلى وضع هذه الرؤى والمنطلقات موضعَ التنفيذ منذ أعدادها الأولى. فاستكتبتْ في سنتها الأولى أكثَر الأسماء الجادّة والمعروفة في هذا المجال[١٣]، وفتحت البابَ أمام عدد من النقّاد الشباب الذين كانوا غير معروفين وقتها[١٤]، ودعت عدداً من الكتّاب اللاّمعين الذين توقّفوا عن الكتابة إلى العودة لها مثل توفيق يوسف عوّاد وفؤاد الشايب. ومن هنا نلاحظ أنَّ المجلّة كانت تعي من البداية ضرورةَ الانفتاح على مختلف الطّاقات النقديّة مادامت تشاركها الإيمان بمنطلقاتها، وأنّها سعت منذ عامها الأوّل إلى إفساح المجال أمام المواهب النقديّة الجديدة والاجتهادات الشابّة إيماناً منها بضرورة تجديد دماء الحركة النقديّة. وطرحت المجلّة كذلك في عامها الأوّل عدداً من القضايا المهمّة في استفتاءاتها من «تشجيع الأدباء الناشئين» (عدد ١) إلى «طلاّبنا بين العلم والأدب» (عدد ٢) «وهل يؤدّي الأدباء الشيوخ رسالتهم»؟ (عدد ٥) «وأسباب ضعف المسرحيّة العربيّة الحديثة» (عدد ٧) «والشّعر العربي بين التقييد والتحرير» (عدد ٨) «والنزعة الإنسانيّة في الأدب» (عدد ٩) «وأزمة المجلاّت الأدبيّة في العالم العربي» (عدد ١٠).

وفضلاً عن هذا كلّه نجد أنَّ المجلّة حرصتْ من البداية على أن يكون تبويبها تجسيداً لأهدافها المعلنة. فقدّمت الأعمالَ الأدبيّة الشّابّة؛ وتابعت الإنتاج الأدبي الجديد بالنّقد والتّحليل؛ وفتحت الباب أمام الجدل والحوار والمناقشات الجادّة لكلّ ما تنشره؛ واستحدثت باب «قرأت العدد الماضي من **الآداب**» الّذي أدار حواراً دائماً بين النّقد والإبداع فيها وراد خطوات المواهب الشابّة وجنّبها العثرات؛ كما تابعت النشاط الثقافي في العالم العربي وفي العالم الغربي معاً. ومن هنا استطاعت المجلّة من عامها الأوّل أن تكون نموذجاً للمجلّة الأدبيّة الملتزمة بقضايا الواقع العربي، وبإدارة حوار بينها وبين ما يدور في العالم الخارجي. ذلك أنَّ انفتاحها على الثقافات الإنسانيّة المختلفة تطلّب منها الحرصَ على النهوض بدورها المعرفي في إطلاع المثقّف العربي على ما يدور في عالمه العربي أوّلاً، ثمَّ على ما يدور في العالم الخارجي ثانياً. ولم تكن المجلّة مقفولة على تيّار بعينه في هذا المجال، وإنّما كانت مفتوحة على عدد من التيّارات الّتي احتضنت عبرها التعدّديّة قبل أن تصبح التعدّديّة شارَة العصر. لكنَّ الفرق بين تعدّديّة **الآداب** وتعدّديّة ما يسمّى بالنّظام العالمي الجديد أنّها كانت تعدّديّة في نطاق الوطنيّة والمشروع القومي الكبير، ولم تكن تعدّديّة الانبطاح والتضحية بالقضايا المصيريّة والارتماء في أحضان الأعداء. كانت تعدّديّة الصدق والكرامة لا الزيف والتبعيّة، وكانت تمتدّ من الصعيد الفكري إلى الصعيدين العمري والجغرافي: فقد تجاورتْ على صفحات المجلّة أكثرُ الأقلام شباباً وأكثرها حنكةً وتجربة، والتقتْ في ساحتها كتابات الوطن العربي كلّه من المحيط إلى

تعدُّدية «الآداب» تعدُّديّةٌ في نطاق الوطنيّة والمشروع القومي الكبير، لا تعدُّديّة الانبطاح والتضحية بالقضايا المصيريّة والارتماء في أحضان الأعداء!

(١٣) من ميخائيل نعيمة إلى رئيف خوري وأحمد زكي وعلي أدهم وأحمد أبوشادي وأنور المعدّاوي وخليل تقي الدّين وشكري فيصل وساطع الحصري ونبيه أمين فارس ونقولا زيادة وفؤاد طرزي وجبّور عبد النّور وعبد الوهاب الأمين وعبد العزيز الدّوري وابراهيم العرَيْض وعبد الحميد يونس وأنيس الخوري المقدسي وجورج حنّا وكمال اليازجي وعبد الله عبد الدّائم وعبد اللّطيف شرارة وعمر فرّوخ وقسطنطين زريق ومحمّد النقّاش ومارون عبّود وأنيس فريحة وإسحق موسى الحسيني وعمر فرّوخ وعبد الله العلايلي وغيرهم.

(١٤) من حسين مروّة وجبرا ابراهيم جبرا وعبد القادر القطّ ونهاد التكرلي ورضوان ابراهيم وصالح جواد الطعمة وأنطون غطّاس كرم وشاكر حسن آل سعيد، إلى رجاء النقّاش وعبد العزيز سيّد الأهل ومحمود العيطة وغيرهم.

الخليج؛ وتحاورتْ على صفحاتها مختلفُ الاتّجاهات والاجتهادات الوطنيّة؛ وتعانقتْ على صفحاتها التجاربُ الأدبيّة الجديدة في مختلف أجناس الكتابة من الشّعر إلى القصّة، ومن الرّواية إلى المسرحيّة؛ وازدهر النّقدُ على صفحاتها بمختلف اتّجاهاته وتعدّد اجتهاداته؛ كما اتّسعت صفحاتها لكلّ تنويعات الخطاب النقدي من الدراسة الفكريّة الجافّة حتّى العرض الأدبي الخفيف، ومن الاستقصاءات الجماليّة حتّى التحليلات المعياريّة، ومن الدراسة الوصفيّة حتّى النّقد الانطباعي والتأمّلي.

واستمرّت رحلة **الآداب** في التطوّر والازدهار. ولأنّ رصد تحوّلات المجلّة من عام إلى عام أكبرُ من طاقة هذه الدراسة القصيرة، فإنّنا سنتوقّف في محطّات على مبعدة خمس سنوات في فترة الازدهار، ثمّ عشر سنوات بعدها. فبعد خمس سنوات نجد أنّ المجلّة قد أصبحت في عام ١٩٥٨ ـ وهو عام الوحدة المصريّة السوريّة وبلوغ المدّ القومي والتحرّري ذروتَه ـ ملتقى التيّارات النقديّة المهمّة في السّاحة العربيّة وقتها، حيث تحاورت على صفحاتها آراءُ الأجيال جميعها: من جيل عميد الأدب العربي طه حسين ومعاصريه(١٥) إلى جيل طلّابه الأوائل(١٦) إلى جيل أبنائه المتأخّرين(١٧) إلى الجيل الشابّ(١٨) الّذين شهدت **الآداب** خطواتِهم الأولى في مجال النّقد وشجّعتها. فإذا ما تقدّمنا خمسَ سنوات أخرى وانتقلنا إلى سنتها الحادية عشرة، عام ١٩٦٣ فسنجد أنّ **الآداب** واصلت نفس المسيرة وبنفس التنوّع الخصب. وقد كانت هذه السنة هي الّتي شهدت بداية علاقتي الحقيقيّة مع المجلّة كناقد؛ صحيح أنّني نشرت أوّل ما نشرت بها في العام الّذي سبقه، عام ١٩٦٢، ولكن هذا العام كان عامَ حضوري المكثّف على صفحاتها الذي استمرّ بعد ذلك لعدّة سنوات.

* * *

كانت **الآداب** بالنّسبة لجيلي هي المجلّة الأدبيّة بلا نزاع، حيث تبلورت على صفحاتها قضايا السّاعة وتخلّقت فوقها المواهبُ الأدبيّة القادرة على التعبير عنها. وكنت قد عرفت المجلّة قبل ذلك بأعوام عندما كنت لاأزال طالباً في المرحلة الجامعيّة، وكانت **الآداب** بالنّسبة لي ولعدد من أصدقائي وأبناء جيلي من الكتّاب هي الجامعة الحقيقيّة الّتي تعبّر عن نبض الواقع الأدبي، تستأثر بمناقشاتنا الّتي لا تنتهي حول كلّ ما ينشر بها من دراسات ونصوص. كنّا نذهب للحصول عليها من شركة التوزيع، وقبل أن تُطرح على الباعة حتّى لا تفوتنا نسختها، أو حتّى نحصل عليها قبل الآخرين بيوم أو بيومين. ولا ينقضي اليوم حتّى أكون قد التهمتُ أهمّ ما بها من دراسات ونصوص. وأذكر أنّ أوّل مقال نشرته بها قد ترافق ظهوره، أو بالأحرى وصوله إلى مصر، مع يوم ظهور نتيجة تخرّجي في شهر أغسطس عام ١٩٦٢. وما إنْ حصلتُ على نسخة **الآداب** ووجدت اسمي منشوراً على صفحاتها حتّى غمرتني فرحةٌ طاغية. ولقيني صديق في الطّريق، وجذبني من يدي للذهاب والاطّلاع على نتيجة التخرّج. لكنّي كنتُ غيرَ مبال بهذا الحدث المهمّ في حياة شابّ في العشرين، لأنّ تخرّجي الحقيقي قد تمّ بالنّشر في **الآداب**. ولمّا وصلنا إلى مكان النتيجة كان الطلّاب متكأكئين على الكشوف يقرأون أسماءهم. ولم أزاحم أحداً؛ فقد كانتْ في يدي **الآداب** الّتي نشرت مقالي فملأتني بالفرح. ولمّا سمعت الزّملاء يهنّئونني على النجاح بتفوّق كبير وبمرتبة الشّرف لم أعبأ بالأمر، لأنّ فرحتي بالنّشر في **الآداب** طغتْ على كلّ ما عداها. كنت أريد أن أنصرف عن طلّاب الجامعة وأهرع إلى زملاء الحركة الأدبيّة من قرّاء **الآداب** لأبشّرهم بأنّني انضممت إلى كتّاب **الآداب**. فقد كان مجرّد النشر فيها قيمة تفوق كلّ قيمة أخرى.

كانت **الآداب** في ذلك الوقت مجلّةَ الأدب في الوطن العربي كلّه. يتحوّل كتّابها إلى نجوم في السّاحة العربيّة كلّها، لأنّ صاحب **الآداب** كان مولعاً باكتشاف المواهب الجديدة وتحكيم القيمة الأدبيّة وحدها، لا الشهرة أو المكانة أو الوظيفة. وكانت المجلّة ديموقراطيّة في جوهرها: تعامل الكتّاب كلّهم بنفس المعيار، وهو معيار الجودة والإخلاص لرؤى الثقافة العربيّة

(١٥) مثل عبّاس محمود العقّاد ومحمود تيمور وتوفيق الحكيم.

(١٦) أمثال سهير القلماوي ومحمّد مندور وعبد السّتّار الجواري ومحمود المسعدي وفؤاد الشايب ورشيد سليم الخوري وزكي نجيب محمود وغيرهم.

(١٧) أمثال محمود أمين العالم ومحمّد النويهي وكامل السوافيري ومحيي الدين صابر وعبد الجبّار داود البصري ومصطفى السحرتي ونازك الملائكة وأمجد الطرابلسي وسامي الكيّالي وأنيس صايغ وسعدون حمادي وغيرهم.

(١٨) أمثال صلاح عبد الصبور ومطاع صفدي وعبد الجليل حسن وعبد المحسن طه بدر وفاروق خورشيد ورجاء النقّاش ومجاهد عبد المنعم مجاهد وعبد الهادي بكّار ومحي الدّين اسماعيل وسلمى الخضراء الجيوسي ومحيي الدّين محمّد وجليل كمال الدّين وعايدة الشّريف ومحيي الدّين فارس وناجي علّوش وعلي شلش وعلي سعد ووحيد النقّاش وسامي خشبة وعبد العزيز محمود ومحمّد البخاري وغيرهم.

الأصيلة. فقد كان مقالُ ناقد شاب يلقى من الاحتفاء به في المجلّة نفس ما يلقاه مقالُ الكاتب الرّاسخ الشهير. وكانت قيمة **الآداب** وجدّيّتها تفرضان على السّاحة العربيّة برمتها احترامَ اختياراتها. ولذلك ما إنْ بدأتْ مقالاتي في الظّهور في **الآداب** حتّى أخذتِ المجلاّتُ الأدبيّة القاهريّة تسعى إليَّ، بعد أن كنت أطرق أبوابها فلا تأبه بكاتب لم ينشر من قبل. وأذكر أنّني ما إن بدأتُ نشرَ مقالاتي عن نجيب محفوظ بها عام ١٩٦٣ حتّى أخذ نجيب محفوظ نفسه يبحث عنّي مع أنّني كنت أداوم على حضور ندوته الأسبوعيّة قبل ذلك بعدّة سنوات فلم يسع للتعرّف علي. وأذكر أيضاً أنَّ أستاذنا الرّاحل الكبير يحيى حقّي قرأ إحدى دراساتي بها فطلب من مساعده في تحرير المجلّة البحث عنّي للكتابة في مجلّته، فكان رد مُساعده: «لقد أتى لنا بمقال منذ ستّة أشهر ولكنّنا لم ننظر فيه بعد»! فقال له حقّي: «أَحْضِرْ لي المقال على الفور وعندما يجيء إلى **المجلّة** قلْ له إنّني أريد رؤيته». ومن بعدها أصبحتُ من كتّاب **المجلّة** ومن معاونيه في تحريرها. فقد كان لـ **الآداب** القدرة على تحويل من يكتب فيها إلى نجم أدبي بين عشيّة وضحاها، خاصّة إذا ما حظيت كتاباته بشيء من التقريظ في باب «قرأت العدد الماضي» في الشهر التالي. كانت لها هذه القدرة لأنّها كانت تتحسّس نبض اللّحظة وتعبّر عن أفضل ما فيها.

وأذكر أنّه بعد عشر سنوات من هذا التّاريخ دُعيتُ إلى الاشتراك في مؤتمر أدبي في العراق. ولمّا وصلتُ إلى مطار بغداد وجدت في انتظاري زميليْن من كتّاب **الآداب** جاءا إلى المطار خصّيصاً لاستقبالي مع أنّنا لم نلتق من قبل إلاّ على صفحات **الآداب** الّتي عمّقت الرّوابط بين مثقّفي العربيّة من كلّ البلدان. ولمّا التقينا كنّا كأنّنا نعرف بعضنا من عشر سنوات، هي عُمر تعارفنا على صفحات **الآداب**. وكان بين الوفد المصري الكبير ثلاثةٌ من كتّاب **الآداب** من جيلي وجدوا أنفسهم موضعَ حفاوة الكتّاب والمثقّفين في بغداد مع أنّهم لم يزوروها من قبل. وكان في الوفد أستاذ شابّ من جامعة القاهرة أبدى دهشته الشّديدة عندما وجد أنّ جماهير القرّاء والمثقّفين يعرفون كتّاب **الآداب** الشبّان ويحتفون بهم أكثر من معرفتهم بأساتذة الجامعة الكبار واحتفائهم بهم. ولم يتمالك نفسه وصرخ: «كيف أصبح هؤلاء الشبّان أكثر شهرةً وأكبرَ قامةً بين القرّاء من أساتذة الجامعة الكبار؟» وكانت هذه الصّرخة دليلاً على أنَّ **الآداب** قد أصبحتْ هي جامعة الثّقافة العربيّة المفتوحة من المحيط إلى الخليج، وأنّها استطاعت أن تكون صانعة للقيمة وأن تعيد ترتيب المكانات الأدبيّة وفق معايير الجودة والمواكبة والتصادي مع الواقع الأدبي المتغيّر والاستجابة لحساسيّته الجديدة.

* * *

وإذا ما تصفّحتَ **الآداب** على مدّ عقد الستينات كلّه وخلال النصف الأوّل من السبعينات ستجد أنّها قد واصلت الإخلاص للقيم الّتي أرستها في سنواتها العشر الأولى واستطاعتْ أن تلعب دوراً نقديّاً بارزاً في الواقع الأدبي العربي كلّه، وأن تكون النّافذة الّتي ترى منها الحركة الثقافيّة إنجازها العربي، وتتعرّف عبرها على ما يُنتج من آداب وما يدور من أحداث ثقافيّة في الواقع الإنساني كلّه. لكن ما يهمّني التّأكيد عليه هنا هو دورها الكبير في تغيير لغة النّقد وفي إنضاج الخطاب النقدي وبلورة تيّاراته ومناهجه. فلا يمكن التّاريخ لتحوّلات الخطاب النقدي العربي دون دراسة وافية لما ظهر على صفحات هذه المجلّة طوال العقدين الأوّلين من تاريخها المديد. فقد أنقذتِ الخطابَ النّقدي من الاستسهال والضحالة والسطحيّة. ورادت خطواته

لايمكن التّأْريخُ لتحوّلات الخطاب النقدي العربي دون دراسةٍ وافيةٍ لما ظهر على صفحات «الآداب» طوال العقدَيْن الأوّلَيْن من تاريخها!

نحو مزيد من الاقتصاد والتحديد والموضوعيّة. وقوّمَت الذّوقَ الأدبي الفاسد، ونهضت به من وهاد اعتياد تلقّي الأعمال الهابطة إلى مهاد الرّؤية النقديّة القادرة على فرز الجيّد من الرديء، وعلى القيام بالتدريج بدور الرّقيب الحقيقي على الحياة الثقافيّة. وشكّلت اختياراتُها النقديّةُ الواعيةُ القارئ، وحوّلَتْه إلى قوّة فاعلة في الواقع الثقافي؛ تنفي الضحل، وتشجّع على تنمية الاتّجاهات الثقافيّة الحقيقيّة من خلال مؤازرتها والوقوف بجانبها. وساهمت في عمليّة إعادة ترتيب البيت الأدبي وتمحيص مسلّماته، وردّ الاعتبار إلى من هضمتهم الظروفُ أو الممارسات النقديّة الخاطئة حقّهم.

وترتيب البيت الأدبي الّذي قامت به **الآداب** ـ وأعني هنا عمليّة متعدّدة المحاور ومتنوّعة الجبهات ـ قد تحقّق من خلال تمحيص المسلّمات السّائدة الّتي يقبلها الواقع الأدبي كمسلّمات لا سبيل إلى المماراة فيها، ومن خلال إراقة ضوء الشكّ النفّاذ

عليها حتّى يعاد تأسيسها على قاعدة رصينة، وإسقاط ما لا يصمد منها للمحاكمة العقليّة والنّقديّة الصارمة. فقد أدركت **الآداب** منذ بداياتها أنْ لا شيء أخطر على الواقع الثقافي من تسليمه بأمور لا تنهض على أساس سليم، ولا يبقيها في السّاحة سوى الكسلِ العقلي وإخفاقِ النّقد في القيام بمهامه المعياريّة. كما تحقّقت هذه الوظيفة أيضاً من خلال قيام النّقد على صفحات **الآداب** بفرز المكانات الأدبيّة وإعادة ترتيبها حتّى لا يمتلئ الواقعُ الأدبي بالأصنام والأوثان الّتي لا يجرؤ أحدٌ على المساس بها. وإنّما يحفل بالقيم الأدبيّة الحيويّة الّتي يؤسّس إسهامها الأدبي مكانتها، وتنال أخطاؤها من قيمتها، بل قد تزحزحها كلّيّةً عن مكانتها إذا ما كانت هذه الأخطاء فادحة إلى الحدّ الّذي تتطلّب معه إعادة النظر من جديد في تاريخ الكاتب أو النّاقد وإنجازاته ورؤيتها معاً في ضوء جديد. وقد استطاعت **الآداب** أن تعطي هذه المهمّة نوعاً من الحركيّة المستمرّة الّتي أعادت الحيويّةَ للواقع الأدبي وكرّست الجدّيّةَ والموضوعيّة معياراً للحكم عليه.

كما استطاع الخطابُ النقدي في **الآداب** أن يقوم بمهمّة أخرى هي العمل المستمر على خلق تيّار من الرّؤى الجديدة والأفكار الّتي ترفد حركةَ الإبداع وتساعدها على المغامرة في استكشاف الأصقاع المجهولة، وتحثّها ـ أو على الأقلّ تحثّ قطاعاً منها ـ على عدم الاستنامة لدى إنجازاتها، وعلى توسيع أفق هذه الإنجازات بشكل مستمرّ. فقد أدركت **الآداب** من البداية أنّه ليس على النقد أن يقنع بدور التّابع لما يدور في الواقع الثقافي، أو حتّى بدور المشارك في فعاليات هذا الواقع، وإنّما عليه أن يطمح إلى القيام بدور ريادي فيه. ويتحقّق هذا الدّور الرّيادي إلى حدّ ما من خلال دراسة النقد لما يدور في شتّى الثقافات الإنسانيّة الأخرى الّتي انفتحت عليها **الآداب** منذ عددها الأوّل وتابعتْها بالدرس والتمحيص حتّى عددها الأخير. ذلك أنّها تعي أنَّ على المجلّة الأدبيّة الفاعلة أن تقدّم للقرّاء ما ترى أنَّ احتكاك ثقافته به قد يفيد هذه الثقافة، أو يلهم مبدعيها، أو يطرح بعض الحلول لما تواجهه من مشكلات أو صعاب، أو قد يجنّب كتّابَها المغامراتِ الناضبةَ العقيمَ. وبهذا ساهم خطاب **الآداب** النقدي لا في إثراء ثقافته وحدها، وإنّما في عقد حوارٍ خلّاق بينها وبين غيرها من الثقافات الإنسانيّة كذلك.

وإذا ما تتبّعنا تحوّلات الخطاب النقدي في **الآداب** عبر هذه المرحلة فإنّنا سنجد أنّها استطاعتْ أن تُرهف من فاعليّته وأن تبلور لغته وتنقّي مصطلحه، وأن تقترب به باستمرار من الموضوعيّة والتحليل، وتنأى به عن الوصفيّة والتسطيح. فقد برز على صفحاتها النقدُ الاجتماعي والنقدُ التحليلي الّذي يركّز على النّصّ ويستكشف أنساقه وبناه قبل أن يشيع هذا الاتّجاه النقدي باعتباره أحدوثة لدى البعض بأكثر من عقدين من الزمان. كما سعى هذا الخطاب النقدي، وخاصّة في تجلّيّاته الناضجة الّتي يمكن أن ندعوها بمدرسة **الآداب** النقديّة الّتي تَبلور خطابُها في بوتقة الفكر القومي، إلى تحقيق توازن حسّاس بين العناصر الجماليّة والبنائيّة للعمل وبين الدلالات الاجتماعيّة والسياسيّة له. واستفاد كثيراً من الاتّجاهات الاجتماعيّة والنفسيّة والجماليّة على الترتيب، ومن فكر المدرسة الوجوديّة النقدي، وخاصّةً في أرقى تجلّيّاته النقديّة عند جان بول سارتر. ودعا هذا الاتّجاه النقدي إلى الالتزام في الأدب، ولم يقصر الالتزام على الجانب الاجتماعي وحده، وإنّما مدّ أثر هذا الالتزام إلى الجانب القومي ووسّع من آفاقه ومدلولاته، إيماناً منه بوحدة الثقافة العربيّة. كما ربط الالتزام بالنّضج الفنّي والقيمة الجماليّة. فاستطاع النقد أن يكون رافداً من روافد الحساسيّة الجديدة وأن يسهم في صياغتها وبلورة شفراتها المختلفة، وخلق جسور مستمرّة بين رؤاها وإنجازاتها وبين المتلقّي، بصورة لم يعد ممكناً معها للنّقد إلاّ أن يتقدّم باستمرار إلى الأمام وأن يتبلور مصطلحه وتزداد منهجيّتُهُ تحديداً وصرامة.

* * *

صحيح أنَّ **الآداب** قد عانت من دورة الزمن العربي الرّديء الّذي وجد نفسه مرّة أخرى في وضع أسوأ من ذلك الّذي انطلقت **الآداب** للردّ على ما فيه من تردّ. لكنَّ سؤال هذه الدورة الرديئة والانتكاسة الثقافيّة والفكريّة والسياسيّة الّتي صاحبتها يظلّ مفتوحاً: لماذا حُكِمَ على الثقافة العربيّة أن تعيد ما بدأته كلَّ فترة من الزمن؟ وأن تؤسِّس بديهيّاتها من جديد ولا تراكم إنجازاتها وتتصلّب في مؤسَّسات قادرة على المضي للأمام دون الانتكاس للوراء كلّ فترة؟ وهذا ما لا نستطيع أن نجيب عنه في نهاية هذه الدراسة، ولكنّنا نطرحه مع ذلك لأنّه ليس سؤال **الآداب** وحدها ـ وهي الّتي وجدت نفسها في نهاية المطاف أمام الوضع الّذي بدأت منه وقد ازداد سوءاً عمّا كان عليه ـ ولكنّه سؤال **الثقافة العربيّة برمتها**، وسؤال النهضة والتنوير الّذي لابدّ من إعادة النظر فيه. وهذه هي المهمّة الّتي أرجو أن تنهض بها **الآداب** في مرحلتها الجديدة.

مصر ـ لندن